من تراثنا الغائب

كتاب الغزوات لابن حبيش

أول نشرة للمخطوطتين الوحيدتين الباقيتين في: (برلين) و(ليدن)

للمحدث، المؤرخ، الخطيب/ أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد بن حبيش

(٥٠٤ هـ ٥٨٤) = (١١١٠ م ١١٨٨)

تحقيق ونشر

دكتور احمد عنيم

ليسانس الحقوق (عين شمس) ـ ليسانس دار العلوم (القاهرة)
شهادة الدراسات العليا في التربية وعلم النفس (عين شمس)
شهادة الدراسات الفرنسية (جرينوبل ـ فرنسا)
دكتوراه في الشريعة الاسلامية والقانون ـ حقوق القاهرة
استاذ الدراسات الاسلامية بالجامعة الامريكية بالقاهرة

١٤٠٣ هـ النشرة الأولى ١٩٨٣ م

من تراثنا الغائب

كتاب الغزوات لابن حُبَيْش

أول نشرة للمخطوطتين الوحيدتين الباقيتين في: (برلين) و(ليدن)

للمحدث، المؤرخ، الخطيب/ أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد بن حبيش

(٥٠٤ هـ ٥٨٤) = (١١١٠ م ١١٨٨)

تحقيـــق ونشر

دكتور احمد عنيم

ليسانس الحقوق (عين شمس) ـ ليسانس دار العلوم (القاهرة)
شهادة الدراسات العليا فى التربية وعلم النفس (عين شمس)
شهادة الدراسات الفرنسية (جرينوبل ـ فرنسا)
دكتوراه فى الشريعة الاسلامية والقانون ـ حقوق القاهرة
استاذ الدراسات الاسلامية بالجامعة الامريكية بالقاهرة

١٤٠٣ هـ النشرة الأولى ١٩٨٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى عالمٍ عامل ، وإمام فاضل ، أهْدَى حياتَه لخدمة الإسلام والعلم ، فكان شرفاً لى أنْ أستسمِحَ سماحتَه فى قبول هذا الإهداء .

إلى صاحب السماحة ، فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز الرياض .

لقد كان فيما تواترَ من أنبائكم ـ عن بُعد ـ ثم فيما سمعته من فضيلتكم ـ عن قُرب ـ حين أُتيحَ لىَ التشرُّفُ بالتعرُّفِ إليكم ، فى رحبة بيت الله الحرام ، وفى رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة . لقد كان فى كلِّ ذلك ما زادنى إيماناً وأمْناً : أنَّ أُمَّةَ الإسلام لن تزالَ بخير ، مادام فيها علماء عاملون ، يعشقون العلم ، ويصدَعون بالحق ، ويعملون بما يعلمون ! .

وهذا تُراثٌ من جواهر الميراث ، لعالِمٍ عَلَم ، ورِقَّة بين القِمَم ، فى آفاق الأندلس الحبيب ، أيامَ نَزَلتْ بساحته الخطوب ، وآذَنَتْ شمسُه بالغروب . فعَكَف هذا العالِمُ على علمه ، وغَمسَ قلمَهُ فى ألمِهِ وهَمِّه ، لِصَابِ دينه فى مصيبة قومه ، إذْ عَصَفَتْ بهم رِدَّةٌ « ولا أبا بكرٍ لها » ـ فى المغرب ـ كتلك الردَّة التى انفجرت من قبل ذلك ـ فى المشرق ـ كلتاهما رِدَّةٌ عن الأُخوَّةِ الإنسانيةِ فى وَحْدة الإسلام ، إلى جاهليَّة العنصرية فى تهالك الحكام .

هذا تراثٌ من نوادر الميراث، أهملَهُ أهلُه قروناً ثمانية ، فى سَكْرَتهم عن روائع ماضيهم ، وفى غَمْرتهم بمآسى حاضرهم : (نَسُوا الله فأنساهم أنفسَهم)[1] .

ولقد جاهدتُ جُهدى - والله عونى وحَسبى — أنْ أرتحلَ وراء هذا التراثِ فى مَكامِنِهِ حتى أُظْهِرَهُ ، وأنْ أقومَ بتحقيقه وأنْ أنشرَهُ ، بعد أن أمْسى فى بلاد العالم الإسلامىّ أكثرُ من أندلس ! وبعد أن أصبحت العودةُ إلى الوحدة الإسلامية ليست مجرّدَ فريضة دينية، وإنما هى - الآن - قضيةُ . أن نكون أوْ لا نكون !

وصدق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيما ألهمه به الله من أنباء الغيب : (تُوشِك الأممُ أن تداعى إليكم كما تَداعَى الأكَلَةُ إلى قصعتها)! قيل : « أمِنْ قِلّةٍ نحن يومئذٍ يا رسولَ الله » ؟ ! قال : (لا ؛ بل أنتم يومئذٍ كثير ، ولكنكم غُثاءٌ كغُثاء السيل[2]) !

والله غوث المستغيثين والله ولىُّ المخلصين ، والله دائما أكبر ؟

أحمد غنيم

القاهرة فى : غُرّة رمضان ١٤٠٣ (١١ / ٦ / ١٩٨٣)

---

(١) من الآية ١٩ من سورة (الحشر) ٥٩

(٢) رواه أحمد .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله ، جعل من طلب العلم سبيلاً إلى رحمته ، وطريقاً إلى جنته . وأشهد أن لا إله الله ، لا علمَ إلا من هداه ، ولا توفيق إلا من نعمته . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، رفع درجة العلماء وجعلهم (ورثة الأنبياء) في هديه وسنته[1] . وبعد :

١ — ففي مقدمة نشرتنا الأولى لأربع مخطوطات مجتمعة لجزء من كتاب : « الاكتفا في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفا » للشهيد المحدّث المؤرخ / أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي (٥٦٥ هـ ٦٣٤ = ١١٧٠ م ١٢٣٧) — والتي نشرناها لأول مرة تحت عنوان : « الخلافة الراشدة والبطولة الخالدة في : حروب الردة » — أشرنا هنالك إلى ماذكره الكلاعي نفسه في مقدمته : من نقله عن كتاب شيخه / أبي القاسم عبد الرحمن بن حبيش ،

---

(١) في الحديث النبوي الشريف : (من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة ، وان الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وان العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، والحيتان في جوف الماء ، وان فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وان العلماء ورثة الأنبياء ، وان الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر) رواه أبو داود : ج ٢ ص ٢٨٥ (كتاب العلم) ، والترمذي : حـ ٥ ص ٤٨ ، ٤٩ (باب : ما جاء في فضل الفقه على العبادة) وروى بعضه مسلم : ج ٢ ص ٤٧٣ (باب فضل الاجتماع ..) كما رواه بكامله : أحمد بن حنبل في مسنده ، وابن حبان في صحيحه ، والنسائي ، وابن ماجه : انظر : السيوطي : « الفتح الكبير » ج ٣ ص ١٩٩ .

بين مانقل عنه من المصادر الأمّهات ، ومعظمها — كما نعلم — غائب أو مفقود !

كما قلنا كذلك : « إن هنالك مخطوطا لايزال قابعا فى (المكتبة الملكية) الألمانية ببرلين ، لا يُتاح لنا العلم به إلا من خلال كتابة الأمير المستشرق / كايتانى ، عن حروب الردة ، ذلك هو (كتاب الغزوات) للمحدّث المؤرّخ الخطيب / أبى القاسم ابن حبيش .. » .

وفى الطبعة الثانية من تلك النشرة (ص ٩ هامش ١) قلنا : « إذا شاء الله وانفسح الأجل ، فإننا نستعد الآن للسفر إلى (برلين) خلال رحلتنا إلى مكتبات أوربا للبحث عن المخطوطات . وبالله وحده التوفيق . . »

٢ — ربّنا ولك الحمد !

فلقد يسّر الله لى السفر برغم إرهاق المشاغل وعناء المرض ، ثم كان مَطْمَحُ الأمل — كما أسلفت — أن أظفر بصورة من مخطوطة (برلين) فإذا بى أعثر على مخطوطة ثانية لاتزال باقية فى (ليدن[1]) بهولندا ، وهأنذا — بفضل الله وحده — أسعد بتحقيق و نشر كلتا المخطوطتين معا ، ولا ثالثة لهما فيما يذكر الباحثون — حتى الآن — فى مجامع المخطوطات بعامة !

---

(١) نعم ، لقد أشار اليها بعض الباحثين مثل (كارل بروكلمان) : « تاريخ الأدب العربى » ج ٦ ص ١٣٣ وكذلك : نجيب العقيقى : « المستشرقون » ج ص ٦٤٧ غير أن هذه المكتبة العتيدة قد سبق أن جادت ببعض مقتنياتها — كما فعلت مع مكتبة جامعة (برنستون) الامريكية ١٩٣٨ — فضلا عما أسلفناه من انصراف الباحثين الى مخطوطة (برلين) مما جعل العثور على مخطوطة (ليدن) فو مـا كنت أرجو ... فعسى الله أن يكتبنا فيمن قال فيهم : (واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم) .

المخطوطة المشهورة : (مخطوطة برلين)

٣ ـ فى (برلين) الغربية ، وبمكتبة الدولة : (Staat Bibliothek) فى فهرس (ألوارد ـ Ahlwardt) تحت رمز (Wetzstein - 1 - 173) تقبع هذه المخطوطة ، ولو أن خطأ ظاهراً قد وقع في كتابة اسم المؤلف : (ابن حابش -Ibn Habish) وهي مصونة بغلاف من الجلد البُنّى المتين ، رغم مايبدو عليها من تقادم الزمن ، إذ جارَت على بعض ورقاتها الخروم ، بل ضاع من صدرها بضع ورقات ، كما وقع خطأ في ترتيب أوراقها عند التجليد (٤ ، ٥) وكل هذا قد أشيرَ إليه فعلا فى الفهرس ! ـ كما نشير إليه ، إن شاء الله ، فى موضعه هنا ـ أما الخطّ فمغربى عتيق يحتاج فى قراءته لجهد المتخصصين ، ومسطرتها ٢٨ سطرا ، وورقاتها ٢٣٥ ورقة .

وقد تكرّم دكتور/ كوريو (Dr. Kurio) والمشرفون على المكتبة بإمدادنا بصورة طبق الأصل (Xerox) ثم بتصوير مصغّر (Microfilm) فضلا عما نسخناه بأيدينا هناك .

٤ ـ على أن هذه المخطوطة تمتاز بما ورد فى ختامها من : « تمامها فى شهر رمضان ، من عام ثلاثة وثمانين وخمسمائة » أى فى حياة ابن حبيش نفسه ! (٥٠٤ هـ ٥٨٤) كما أنها بخطّها المغربى ربّما تمّت كتابتها بمقربة منه ، أو تحت نظره ، بل ربما أتيحَ لها عرضها عليه .. فلا جَرَم أن تستحقّ بحق : أن تكون هى (المخطوطة الأم) ، ونرمز لها بحرف : (ب) .

المخطوطة المغمورة : (مخطوطة ليدن)

٥ ـ كم كانت غبطتى حينما بشّرنى الأستاذ/ لنسن ، المشرف على قسم

المخطوطات العربية هناك ، ببقاء هذه المخطوطة بين مقتنيات المكتبة ، وهي مثبتة في الفهرس الشرقي: (Catalogus - Codium Orientalium) الذى صنّفه المستشرق : (ب . ا . دوزى) ص ١٥٨ من المجلد الثانى تحت عنوان : (تاريخ -Historia) وبرمز (Cod. 343 . Warn)

وفى نشرتنا هذه نرمز لتلك المخطوطة بالحرف : (ل)

تقع هذه المخطوطة في ٢٤٣ ورقة من الحجم العريض ، ومسطرتها (المعتادة) ٢٩ سطرا ، وبخط مصرى واضح ، ومغلّفة بالجلد الفاخر ، وهى سليمة تقريبا ، إذ أنها أحدث عهداً من مخطوطة (برلين) فقد تمّ نسخها بالقاهرة فى ٢٧/٦/٨٥١ هـ ثم روجعت على أصلها (؟) في ١٩/٥/٨٥٢ هـ [١] .

وقد تفضلت المكتبة بإمدادى بنسخة مصورة مصغرة (ميكروفيلم - Microfilm) تنشر صدرها وختامها كما نفعل بنسخة (برلين)[٢].

تعاون المخطوطتين ، فى التكامل والتوثيق :

٦ — وهكذا : أنعم ربّى ثم زاد ، إذ أظفرنى بالمخطوطتين معا ، فكان اجتماعهما في تكامل متبادل :

---

(١) جاء فى الصفحة الاخيرة منها : « قال ذلك أبو الحسن ابراهيم البقاعى ، وهو الذى قابله وطالعه مرات » .

(٢) تكرم القسم الهندسى بدار الكتب المصرية (المركز الرئيسى - طريق النيل) بطبع ما طلبناه من هاتين النسختين ، والحق أن ما لمسناه من الشباب الفاضل القائمين بهذا القسم من كرم الاستقبال وسرعة الانجاز ما يبشر بالامل ويستحق التسجيل .

كما كان للكريمة الفاضلة الاستاذة : سميرة العرابى من الفضل ما يفوق كل تقدير وشكر .

والله نرجو : أن يجعل هذه العناصر الممتازة قدوة لسواها !

(ا) فما سقط من صدر مخطوطة (برلين) تبرّعت بإكماله مخطوطة (ليدن) وقد نبهنا إلى ذلك في موضعه من هذه النشرة .

(ب) كذلك ، فلئن كانت مخطوطة (ليدن) هذه أحدث من سابقتها (مخطوطة برلين) بثمانية ومائتين وستين عاما (٨٥١ — ٥٨٣) لكن ناسخها يسجّل في صدرها — كما سنرى إن شاء الله — شهادة أبي الخطاب ابن دحية[1] بسماع أصلها (؟) من أبي القاسم ابن حبيش نفسه .

(جـ) كما أسلفنا الإشارة إلى أننا وجدنا في الصفحة الأخيرة من هذه المخطوطة: شهادةً أخرى من عالم آخر من علماء الحديث — وحسبك برجال الحديث من شهود ! — هو / إبراهيم البقاعي[2] ، بمراجعته لهذه المخطوطة على أصلها (؟) أيضا .

ولنا عودٌ لمحاولة التعرّف على هذا (الأصل) إن شاء الله قريبا .

(د) أما الشهادة الموضوعية : ففي تطابق هاتين المخطوطتين تطابقا يكاد يكون كاملا حتى في الأخطاء النسخية ! بل إن بعض الأخطاء في مخطوطة (برلين) جرى تصحيحها أو العدول عنها بشطبها ، فإذا بنا نجد هذا نفسه في مخطوطة (ليدن) ! فضلا عن تطابق التعليقات الهامشية

---

(١) عالم لامع من تلاميذ ابن حبيش نفسه ، وسنترجم له ان شاء الله في صدر المخطوطة .

(٢) تردد اسمه كواحد من أصحاب الفكر الجريء والكلمة الشجاعة بين علماء عصره . انظر : أ — محمد بن أحمد بن اياس الحنفي المصري : « المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور » طبعة « دار الشعب » بالقاهرة . مجلد ١ ص ٣٣٧ ، ٤٢٠ — ٤٢٢ ، ٤٤٦ . وكذلك : ب — عمر رضا كحالة : « معجم المؤلفين » جـ ١ ص ٧١ .

سواء بسواء ، وقد نبّهنا إلى هذا كله فى مواضعه ، وميّزنا معظم هذه التنبيهات فى الهامش بالحرف الأسود القاتم . وهى عديدة كثيرة منثورة في الصفحات كلها .

رأينـا : فى (أصل) مخطوطة (ليدن)

٧ — هكذا ، وفى ضوء ماأسلفناه مما استكشفناه من مطابقة النسخة الأحدث (مخطوطة ليدن) للنسخة الأقدم (مخطوطة برلين) وفى ضوء ماجاء فى صدر مخطوطة (ليدن) وفى ختامها من الشهادتين (لابن دحية والبقاعى) بمطابقتها الأصل ، بل فى ضوء ماورد فى ثنايا المخطوطتين — كما سنشير إن شاء الله إلى ذلك فى الهوامش المميزة بالحرف الأسود القاتم — من إشارة إلى أصل (؟) فإما أن يكون هناك (أصل) مشترك نقلت المخطوطتان كلتاهما عنه ، وإما أن تكون المخطوطة الأحدث (مخطوطة ليدن) قد نسخت من المخطوطة الأقدم (مخطوطة برلين) وهذا هو الأقرب والأغلب ، والله وحده هو الأعلم .

توثيق موضوعى آخر ، من مخطوطات الكلاعى :

٨ - وأخيراً : فإن هناك شهادة موضوعية أخرى ينهض بها الكلاعى الذى صارَحَنا بنقله عن كتاب أستاذه ابن حبيش ، فإذا بنا نرى كتابته فيما نشرناه من : « الاكتفا » تكاد تكون فى كثير من المواضع نقلا حرفيا عما وجدناه فى المخطوطتين من : « كتاب الغزوات » لابن حبيش! حتى لَكأنّ الكلاعى إنّما يعرض عمل أستاذه — مع أعمال أئمة آخرين سابقين — عرضا جديداً ، يتميّز — ودون شك — بجِدة السَّبك ،

وجودة الصياغة ، مع تهذيب المادة ، وتجنّب التكرار ، مما ان يخفى على فطنة القارىء ، وإن كنا قد أشرنا إلى بعضه إلماماً . (مثلا : ص ٢٧ ، ٩٧ ، ١١٦ ، ١٢١ من هذه النشرة) .

— على أننا نصرّح : بأن هذا التطابق بين مانشرناه من مخطوطات الكلاعي [١] وما ننشره الآن من « كتاب الغزوات » لابن حبيش ، قد استعنّا به فعلا أثناء عملنا فى (برلين) لقراءة بعض طلاسم الخطّ فى مخطوطتها ، كما رجعنا — بعد ذلك — للكلاعي خلال التحقيق ، وقد أشرنا إلى هذا أيضا فى بعض المواضع بالهامش .

لكننا فى الحق لسنا فى تسجيل هذه الملاحظة بسابقين ، فلقد قرأنا — بعد عودتنا للقاهرة وبعد الفراغ من التحقيق والاستعداد للطبع والنشر — ماأوردته : « دائرة المعارف عن الإسلام » بهذا المعنى [٢] .

ويبقى امتياز الشيخ على تلميذه

٩ ـ لكن « كتاب الغزوات » لابن حُبيش ، يبقي له امتيازه ـ وهو كتاب الشيخ ـ على كتاب تلميذه الكلاعي ، بذلك الحشد الرائع الذى يفيض به من توالى الإسناد ، وكثرة المصادر ، حشداً يتجلّى فى ذلك الثبت المنشور بصدر الملاحق البيانية (ثالثا ورابعا) فى آخر هذه النشرة حتى لقد اضطررنا إلى أن نقسمه إلى قسمين : (ا) للأعلام (ب) للكنى والأبناء .

---

(١) الخلافة الراشدة والبطولة الخالدة فى : « حروب الردة » .

2 — (a) "Encyclopedia of Islam" V. 5, P. 803, 804 - Ibn Hubaysh.

(b) D. M. Dunlop : "The Spanish Historian Ibn Hubaish". "Journal of The Royal Asiatic Society" (2/1941) p.p. 359-362.

فضلا عما للشيخ — ابن حبيش — من مزية التقدم الزمنى فى مجرى التاريخ ، وارتفاع الطبقة فى سلسلة الإسناد .

الكاتب وما كتب

١٠ — والآن ، آن لنا أن نتقدم لتقديم هذا الكاتب (ابن حبيش) وتصويره فيما عاصره من الظروف بعامة ، وفيما عاصره من المؤثرات عليه وعلى إنتاجه لهذا الكتاب بخاصة ؛ لعلنا نعثر على جوابين للسؤالين التاليين: أما أولهما : فلماذا بدأ كتابه بحروب الرّدة ؟ مخالفا ما كان مألوفا قبله من من البداية بالسيرة النبوية ، كما فعل ابن إسحاق والواقدى — وقد كتبا عن الردة بعد الفراغ من كتابة السيرة — بل مخالفا لما فعل معاصره السهيلى (٥٠٨ هـ ٥٨١) صاحب « الرّوض الأُنف » الذى عكف على السيرة النبوية وحدها ، مرتكزاً على شرح كتاب ابن اسحاق ! بل مغايراً لمنهج تلميذه الكلاعي من بعده فى « الاكتفا » وقد بدأه بالسيرة النبوية ، ثم ثنّى بحروب الرّدة !.

وأما السؤال الثانى : فيستوقفنا فى تصدير ابن حبيش لكتابه هذا — كما سنرى إن شاء الله — من مديح فضفاض لسلاطين (الموحّدين) ولهج بالثناء عليهم ؟ مديحا وثناء لانكاد نسيغهما من عالم كبير كابن حبيش ، إلا إذا تصورنا هذه الظروف !

ردة ؛ ولا أبا بكر لها !

١١ — نعم ففى سنة ٥٠٤ هـ (١١١٠م [١]) حين كانت رياض الأندلس

(١) السيوطى : « طبقات الحفاظ » طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة ص ٤٨٠ .

تصطبغ بالدم ، وتصطلى بحروب شرسه عاتية ، ليدت فيما بين أهلها وللغير بن عليهم فحسب ، وإنما بين حكام أقزام كفروا بالوحدة الإسلامية ، وانتكسوا إلى وثنية الزعامة وجنون السلطة ، يتقاتلون فيقتل بعضهم بعضا ، كما سُفكت دماء المسلمين فى محنة الردّة الأولى ، بأيدى عُبّاد الزعامة وبجانين السُّلطان[1] !

فى هذا الجحيم الذى كان جَنّة ، فبات غارقا فى بحار النار و الدم . وُلِدَ أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف ابن أبى عيسى ابن حبيش ، الملقب بالأنصارى كنسب ، وبالأندلسى كوطن ، وبالمرِيّ ، انتسابا إلى (المرية) من بلدان الأندلس حيث ولد ، كما يلقب بالمرسى نسبه إلى (مرسية) من مدائن الأندلس ، حيث تألق فى عنفوان شبابه ونضوجه ، عالما فقيها ، ومحدّثا حافظا ، وخطيبا مفوّها للجامع الأكبر ، ثم قاضيا ومفتيا للمدينة كلها إلى أن لقى ربّه .

---

(١) وما دارت رحى الردة الاولى حين اندلعت بالمشرق ـ وهى موضوع الكتاب ـ الا حول هذا المحور ، كما سنرى من اقاويل المرتدين انفسهم ، وفى تصريحات المتنبئين واعوانهم .. فلقد كانت امنية مسليمة : « لو جعل لى محمد الخلافة من بعده لاتبعته » ! (ص ٨٨) ثم كان شعاره : « لنا نصف الارض ولقريش نصفها » ! (ص ٨٨) الى اقاويل منثورة تصرخ بفحيح الوثنية البشرية ، ووثنية الزعامة ! وجنون السلطان ! وحسبك من اطلالة على هذا المسرح الرهيب الدامى ، وادوار الحكام الاقزام ، الذين اضاعوا على الاسلام بل على الانسانية كلها حضارة مشرقة باهرة ، وباعوا اعراضا واهدروا دماء بريئة طاهرة ، بالثمن الدون من وثنية الزعامة وجنون السلطة حتى خسروا اخراهم بعد ان دمروا دنياهم ... حسبك ان تقرأ : عبد الحميد العبادى : « المجمل فى تاريخ الاندلسى » وانظر بخاصة : (ص ٦٦) كيف باءت الوثنية العنصرية باشعال الفتنة بين العرب وسواهم على مصرع الاخاء الاسلامى ، ليصبح العرب اول الوقود لفتنة اشعلوها !!

العـــالم الأســـير

١٢ ـــ وحسبتـــا الآن أن نتصور الفتى الأندلسى ـ ابن حبيش ـ وهو يدرج فى دراساته الأولية ببلدته ومسقط رأسه (المرّية) حتى إذا بلـغ السادسة والعشرين من عمره (٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م) مضى لطموحه الفتىّ إلى قمم الازدهار العلمى ، حتى استقر فى (قرطبة) درّة الأندلس ، إلى أن تخرج على أيدى شيوخها بل شيوخ العلوم الإسلامية فى المنطقة كلها يومذاك ؛ حسبك أن يكون من بينهم : الحافظ [١] أبو بـكر ابن العربى [٢] والمحدث المؤرخ : عياض بن موسى بن عياض ، وآخرون كثيرون ، حتى إذا نضجت ثقافته ، وتوافرت حصيلته ، أجازوه ليحمل عنهم أمانة العلم والتعليم [٣] .

ويعود العالم الشابّ إلى بلدته (المرّية) الوفاء لها ولأهلها بحقهم عليه فيما نال من العلم وما بلـغ من الثقافة ، لـكنه لايـكاد يقوم برسالة التعليم والإسهام فى صرح الحضارة والعرفان حتى ينقضّ المغيرون على بلدته الحبيبة إليه ، قتلا وخطفا وتدميراً (٥٤٢ هـ ١١٤٧ م) .

١٣ ـــ وهنا نرى العالمَ الشابّ كما رأينا الآخرين من علماء عصره ـ على رأس المجاهدين فى قلعة (المرية) ، إلى أن نراه أسيرا فى قبضة عدوّه ، بين يدى الشُّلَيطين ـ مصغّر السلطان كما كان يسمي للاستهانة به ! ـ (الفونس السابع) الليونى [٤] ، وجها لوجه !

---

(١) درجة رفيعة بين علماء الحديث .

(٢) وهو غير محيى الدين بن العربى المتصوف .

(٣) الضبى (أحمد بن يحيى) وقد عاصر ابن حبيش الى وفاته : « بغية الملتمس » ص ٣٤٥ ترجمة ٩٨٨ .

(٤) من (ليون) وهى الان مدينة فرنسية .

وينبسط الحوار بين السلطان المنتصر والعالم الأسير ، يتجلى فيه علم ابن حبيش واتساع أفقه حتى بتاريخ الأوربيين وأنساب ملوكهم ! فلايسع (الفونس السابع) إلا أن يطلق إساره هو وكل من وقع فى الأسر معه دون أن يدفعوا فداء [1] .

آثار المحنة ، فى أعماق ابن حبيش

١٤ ـ ولنا أن نتصور ابن حبيش عائداً ، لا إلى بلدته (المرية) فقد استولى عليها الخراب ، ولكن إلى جزيرة شقر ، وإلى مدائن أندلسية أخر ، تعتصره الآلام لما جنته وثنية الزعامات على أمة التوحيد ، وماجرته عبودية الشهوات على بلده الحبيب ، حتى اعتلى منبر المسجد الجامع فى (مرسية) سنة ٥٥٦ هـ ١١٦١ م ، ليستأنف جهاده فى قيادة الفكر ، وإنقاذ الإسلام وإيقاظ جماهير المسلمين .

وفى رأينا : أن هذا التمرس بالخطابة الجماهيرية هو الذى طبع أسلوب ابن حبيش بذلك الطابع الخطابى الذى يتجلى فى التزامه بالسجع وموسيقى الألفاظ بصورة واضحة .

اشراقة الفجر فى سيوف (الموحدين)

١٥ — وبينما يربض ابن حبيش فى (مرسية) وهو يترقب ويتلهف إلى قيادة إسلامية راشدة ، ترد المسلمين عما ارتدوا إليه من فرقة وتناحر وشتات إلى وحدة الإسلام .

---

(1) D. M. Dunlop. Ibid, P. 359.

إذا به يلمح إشراقة الفجر ، فجر الأمل فى ظلمات اليأس ، وإذا قيادة فتيّةٌ فى ربوع المغرب ، ترتكز على التوحيد ، وترفع لواء (الموحّدين) ، وتعتصم بتعاليم الإسلام ، فى شموخ المؤمنين ، وتسامى المتصوفين ، وحماسة الشهداء .

لقد رأى ابن حبيش كيف نهض (عبدُ المؤمن) سلطان (الموحدين) فى المغرب بما نهض له (يوسف بن تاشفين) سلطان (المرابطين) من قبل ، إذ أرسل جيشه (٥٣٩ هـ ١١٤٤م) إلى الأندلس فلم يزل بها طيلة خمس سنوات في جهاد مستمر لتوحيد أرجائها وقمع جرذانها ، ودحر المغيرين عنها .

١٦ — ثم ، وفيما هو مقيم بمرسية يخطب في مسجدها الجامع ، ابتداء من سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) وماتلاها ، يرى كيف مات عبد المؤمن (٥٥٨ هـ = ١١٦٣ م) ليحمل اللواء من بعده أبو يعقوب يوسف (٥٥٨ هـ - ٥٨٠ = ١١٦٣ م — ١١٨٤ م) فإذا الأندلس تتوحّد مرة أخرى تحت لواء (الموحدين) بعد مصرع الانفصالى المتمرد (ابن مردنيش) (٥٦٧ هـ ١١٧٢ م) وإذا أبو يعقوب مشغوف بالجهاد فى ميادين الأندلس متفان فيه حتى لقى الله شهيداً وشاهداً على اختلاط الدم المسلم بكل أرض مسلمة وإن اختلفت العروق وتناءت الديار [1] . ثم يخلفه ابنه / أبو يوسف يعقوب ليستأنف جهادَه ، حتى توّجه — بعد وفاة ابن حبيش ، بانتصاره الساحق فى موقعة (الأراك) ٥٩١ هـ = ١١٩٦ م

الكتاب بين الدافع والهدف

١٧ — هكذا ، وبرجاء من هذا السلطان الرشيد ثم الشهيد : (أبى

(1) Cambridge : "Dictionary - History of Afriea" V. 3, P. 340.

يعقوب) ، وبوحي من شغفه الواعي بالثقافة ودورها الخطير في السلام وفي القتال على سواء [1] .

وفي وَهَج من جهاده المشبوب ، وبغُصَّةِ الأسى للمحنة . . وفي أجيج اللهب ، وبين أهوال القتال ، وتعاقب الهزيمة والنصر ، والتراجع والكَرّ ، غمس ابن حبيش قلمه في ألمه ، وكتب كتابه هذا عن حروب الردة ، وما تلاها من حروب بالمشرق أيام أبي بكر وعمر وعثمان ، بمداد من مرارة الآلام ولواعج الأحزان ، عسى أن يتذكر المسلمون ماضيهم فينقذوا حاضرهم ، وعسى أن يكون هذا الكتاب خيرَ هدية وهداية لأبي يعقوب والناهضين معه والمجاهدين تحت لوائه في مصارعة الردة بالمغرب ، وكأنما أراد ابن حبيش أن يسهم بالعلم في أتون الجهاد ، وأن يكون كتابه في جعبة المجاهدين ذُخراً من الذخيرة ، ونوراً من النار يلهبون به الحماس ، ويشحذون به السلاح .

١٩ — بقي أن نشير إلى مَغْمَز بين الجد والهزل ، كنّا بسبيلنا لأن نضرب عنه الذكر صفحا ، لولا أنه قد ورد في صدر المخطوطة (ل) — مخطوطة (ليدن) — وفي مستهلّ ما ننشره منها .

ذلك هو مغمز ابن دحية على أستاذه ابن حبيش (ص ٢) قائلا :

« . . إلا أنه روى في هذا الكتاب عن جماعة من الوضّاعين والمتروكين . . » .

---

(1) Bernard. F. Weiss and Arnold. H. Green : "A survey of Arab History" P. 248.

وواضحٌ بجلاء :

١ — أن اصطلاح (الوضّاعين) بخاصّة هو من مصطلح علماء الحديث النبوى الشريف ، يخصّونه بجرم فاحش محـدد ، هو : اختلاق الـكذب ثم نسبته زوراً إلى النبى المعصوم عليه أزكى الصلاة وأتمّ التسليم .

وثابتٌ فى تخريجنا لسائر الأحاديث النبوية (فى هـذا الـكتاب) أنها جميعا مسندة مرويّة فى قمم الصحاح ، لا نستثنى من ذلك إلا مقولة واحدة غامضة : (لايزال أهل الغرب ظاهرين على الحق ..) (ص ١١ مع هامش ٣) فى أعقاب حديث صحيح صريح : (لايزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين) . ولقد كان فى هذا الحديث الصحيح كفاية ، مما يجعلنا نشك ولا نستبعد : أن تـكون تلك المقالة من تزيُّد الناسخ ، خصوصا وأننا لم تصل إلينا تلك المقولة إلا فى المخطوطة المتأخرة — مخطوطة (ليدن) — وتاريخها — كما أسلفنا — بعد وفاة ابن حبيش بنحو مائتين وسبعين عاما .

وفيما وراء الأحاديث النبوية الشريفـة ، فلقـد حرص ابن حبيش رحمه الله على حشد الأسانيد ، وتبيان الرواة للأخبار — كما أسلفنا — وليس فى ذلك مجال لمصطلح الحديث عن (الوضّاعين والمتروكين) .

(ب) وفى مواجهة هذا الاتهام الفردى والشاذّ العابر ، الصادر عن ابن دحية وحده ، لايشاركه فيه أحـد سواه ، نرى على النقيض : إجماعا قويا مستقراً من سائر الـكاتبين عن ابن حبيش — المعاصرين له والمتأخرين عنه — أنه كان حجة فى العلم بالحديث ورواية الأخبـار وفى نقـد الرواة وتمحيص الرجال[1] .

---

(١) فى هامش تال قريب : طائفة من أمهات المصادر تتواتر على ذلك .

ولن ينهض اتهامٌ من ابن دحية ـ وحده ـ فى وجه كل هؤلاء الشهود !.

(ح) وبعد : فلعل من الطريف حقا أن نتعرّف إلى شخصية ابن دحية ، فإذا بوزّان الرجال / شمس الدين محمد الذهبى يقول عنه :

« .. وكان يكتب عن نفسه : ذو النسبين[1] ؛ بين دحية والحسين .. قال الأبّار : كان يذكر أنه من ولد دحية الكلبى ، وأنه سبط أبى البسّام الحسينى[2] .. » .

ثم يسرد الذهبى من أخبار علم الرجل ويضيف إليها بما لا يدع شكاً فى وفرة علمه فعلا[3] .. لكنه يكرُّ بعد ذلك قائلا :

« . وكان معروفا على كثرة علمه وفضائله بالمجازفة والدعاوى العريضة ! قال الحافظ الضياء : كان كثير الوقيعة في الأئمة[4] » .

فماذا على ابن حبيش ـ رَحِمَهُ الله ، وهو واحد من الأئمة ـ أن يقع فيه ابن دحية ؟ !

٢٠ ـ كذلك فقد ألمح ابن دحية إلى تولية ابن حبيش قضاء مدينة (مُرسية) : « فى ذلك اليوم . . » يوم صدور الأمر بجمع كتاب الغزوات (ص ٢ من هذه النشرة) كمكافأة له عليه ! وقد ناقش الباحث المستشرق :

---

(١) وهكذا أيضا ورد فى صدر المخطوطة (ص ٢) .

(٢) الذهبى : « تذكرة الحفاظ » جـ ٤ ص ١٤٢٠ ترجمة ١١٣٦ .

(٣) ويؤيده ما سبق اليه المقرى فى : «نفح الطيب» جـ ٢ ص ٩٩ ترجمة ٥٥ .

(٤) الذهبى : المرجع السابق ص ١٤٢١ وانظر له كذلك : «ميزان الاعتدال» القسم الثالث ص ١٨٦ ـ ١٨٩ ترجمة ٦٠٧٣ .

(د . م دنلوب) (D. M. Dunlop) هذه المقولة فأوردها مرتين[1] ، لكنه يكرُّ عليها بأمانة العلم وفريضة المنطق فيقول معقّبا : « ولاشك ! أن ابن حبيش قد طُلِب منه كتابةُ هذا الكتاب بفضل سُمعته العالية ، كما فعل أبو يعقوب مع ابن زُهْر ، وابن طُفيل ، وابن رشد [2] »

ورَحِم اللهُ ابنَ حبيش ـ العالِمَ العاملَ ، والزاهد القائل :

قالوا : تصَبَّر عن الدنيا الدَّنيَّةِ أو .·. كُن عبدَها ، واصطَبِر للذل واحتمِلِ !
لا بُدَّ من أحد الصَّبْرين ! قلت نعم ! .·. الصبرُ عنها بعون الله أوفَقُ لى[3]

ورحم الله ابن دحية ! فلكل عالم هفوة !
وهل العصمة إلا للأنبياء والمرسلين ! ؟

٢١ — وأخيراً ، وفى يوم الخميس الرابع عشر من صفر (٥٨٤هـ = ١١٨٨م) آن لهذه الروح أن تستريح ، وكانت جنازته كرامة خارقة ، تجاوزت بالواقع المشهود كل خيال .. !

« . ودُفِن يومَ الجمعة ، بإزاء مسجد الجـــوف ، وكانت جنازته مشهـودة ! » .

« أنشدنى بعض أصحابنا ـ وقد عايَن نعشَه فى الهواء لايكاد تلحقه الأيدى ! ـ أبياتا منها :

---

(1) a — "Encyclopedia of Islam". V. 5, P. 803.
b — J. R. A. S. 1941, P. 360.
(2) Op. cit. (b).

(٣) أحمد بن محمد المقرى : « نفخ الطيب » جـ ٣ ص ٢٢٧ .